

النفحة الواحدة والعشرون: رَمَضَانَ شهر الانتصارات

انتصارات كبيرة شهدها شهر رَمَضَانَ المبارك، وفتوحات عالمية حدثت فيه، حتى أصبحنا نطلق عليه: شهر الانتصارات، ولم يكن ذلك غريباً أبداً، فالمقاتلون الصائمون الذين أخلصوا نواياهم لله تعالى، وخاضوا معارك حاسمة، كانوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وكالجسد الواحد في التكتاف والتناصر والاتحاد، فضلاً عن إيمانهم الراسخ، ويقينهم الجازم، بموعد نصر الله تعالى وفرجه.

وإليكم أهم المعارك التي انتصر فيها المسلمون في شهر الصيام:

أولاً: معركة بدر الكبرى:

في شهر رَمَضَانَ من السنة الثانية من الهجرة.

ثانياً: فتح مكة:

في شهر رَمَضَانَ من السنة الثامنة من الهجرة.

ثالثاً: معركة عين جالوت:

في شهر رَمَضَانَ بين المماليك المسلمين والمغول، وذلك سنة 658هـ.

رابعاً: معركة البويب:

في رَمَضَانَ سنة 13هـ وكانت بين المسلمين والفرس، وقد وقعت بعد معركة

الجرس التي انهزم فيها المسلمون، وكانت على ضفاف نهر الفرات، في عهد

الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

خامساً: معركة وادي لكة (شذونة):

وقد أذنت هذه المعركة بفتح الأندلس في سنة 92هـ على يد القائد طارق بن

زياد في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك.

سادساً: معركة المنصورة:

وقعت في سنة 647هـ، بين الأيوبيين والصليبيين وقد لعب المماليك دوراً كبيراً في هذه المعركة، التي قتل فيها الصالح أيوب زوج شجرة الدر، ومع ذلك لم تنزع معنويات المسلمين، حيث استطاعوا أن يوقعوا هزيمة كبيرة بالصليبيين في مصر.

سابعاً:

استطاع الظاهر بيبرس أن يستعيد أنطاكية من الصليبيين في عام 666هـ .

ثامناً:

في رَمَضَانَ عام 599هـ انتصر نور الدين محمود على الصليبيين في معركة حارم.

لم تكن هذه الانتصارات الرائعة التي حققها المسلمون بكثرة عدة وعتاد، ولا بتطور ترسانتهم العسكرية الحربية، إنما كانت بصدقهم مع الله تبارك وتعالى، وإخلاصهم النية، واستماتتهم في رفع راية الإسلام، والذود عن حياضه، والدفاع عن كرامة أهله وأتباعه.

ولا يشك مسلم أن النصر من عند الله تبارك وتعالى، وهذه عقيدة لا يختلف فيها اثنان، إلا أن الحق ﷻ جعل للنصر أسباباً ينبغي الأخذ بها حتى يتحقق ذلكم النصر، وهذه الأسباب أو فلنسمها - السنن الربانية - أوضحها كتاب الله تعالى، ورسول الهدى ﷺ وهاك هي:

□ أولاً: الإيمان بالله تعالى تصديقاً وتحقيقاً:

وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾ [٥١] ﴿ غافر: 51 ﴾ .

إنه وعد الله القاطع الجازم بنصر المؤمنين، نصر في الحياة الدنيا، وذلك حين يهيمن الإيمان على القلوب، وتصبح مستلزماتة الشرعية هي الحكم في قوانين البشر، وهي المرجعية لشؤونهم العامة والخاصة، وفي الآخرة يوم يقوم الأشهاد، وهذا الوعد أكده ربنا جل ثناؤه في كثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا

نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ [الرُّوم: 47].

يا له من جزم ووعد ما أعظمه، إنه وعد من الخالق الكبير المتعال، الذي أوجب على نفسه نصر المؤمنين الصادقين، ولكن قد يبطن هذا النصر - في تقدير الناس - لأنهم يحسبون الأمور بغير حساب وتقدير السماء، والله هو الحكيم الخبير، يحقق وعده في الوقت المناسب، وفق مشيئته وسنته.

□ ثانياً: وحدة الصف:

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحَكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ [الأنفال: 46]، وهذه السنة الربانية يشهد لها التاريخ، وقررها واقع البشر، بل ودنيا المخلوقات الأخرى، فالذئب لا يأكل من الغنم إلا القاصية، واثلاف القلوب، ووحدة الصفوف دليل على نصر مؤكد، لا يمكن أن يتأخر مرة ولا كرة، والتنازع معول يهدم كيان الأمة ويحيلها إلى أوزاع متناثرة، وشيع متناحرة، تزدريها الأمم، وتنهش من جسدها الوحوش.

ومسؤولية رص الصف وجمع الكلمة، تقع أولاً على عاتق الحكام والعلماء، ثم على المرين وغيرهم من فئات الأمة، فمن استطاع توحيد المسلمين وجمعهم فهو من أوجب الواجبات، وإن لم يستطع فليثق بالله ولا يفرق، وليخش الله ولا يثير أسباب الضغينة والشتمات، وليكف شره عن الناس، حتى يتمكنوا من لملمة صفوفهم وتوحيدها.

□ ثالثاً: الصبر والمصابرة:

وهو عامل من أقوى عوامل النصر في ساحات الوغى، بل من المحال أن يتحقق نصر إلا بالصبر، كما قال رسول الله ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً، واعلم أن القلم قد جرى بما هو كائن»⁽¹⁾ وفي هذا يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ [آل عمران: 125].

(1) الحاكم في المستدرک، 3/ 623، رقم: (6303)، ومسنند أحمد، 1/ 307، رقم: (2804).

وقال الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: 200].

ما أجملها من وصية إلهية للمؤمنين، إنها وصية الصبر، لأن الصبر هو زاد الطريق في منهج الإسلام، إنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات والمكدرات، مفروش بالأشواك والدماء والأشلاء، مسرته في الابتلاء، وجوره في الإيذاء، كل ذلك يستدعي صبراً ومصابرة حتى يتحقق النصر وترفع الراية.

□ رابعاً: العدة والعتاد:

قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: 60].

الأمر الأول: إنه لا بد للإسلام⁽¹⁾ من قوة ينطلق بها في الأرض لتحرير الإنسان، وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة، أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها، فلا يصدوا عنها، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها. والأمر الثاني: أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على دار الإسلام، التي تحميها تلك القوة.

والأمر الثالث: أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي وهو ينطلق لتحرير الإنسان كله في الأرض كلها.

والأمر الرابع: أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية، فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها، ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده، ومن ثمَّ فالحاكمية له وحده سبحانه.

إن الإسلام ليس نظاماً لاهوتياً يتحقق بمجرد استقراره عقيدة في القلوب، وتنظيماً للشعائر، ثم تنتهي مهمته... إن الإسلام منهج عملي واقعي للحياة، يواجه

(1) في ظلال القرآن، 3/1543.

مناهج أخرى تقوم عليها سلطات، وتقف ورائها قوى مادية، فلا مفر للإسلام - لإقرار منهجه الرباني - من تحطم تلك القوى المادية، وتدمير السلطات التي تدمر تلك المناهج الأخرى، وتقاوم المنهج الرباني.

□ خامساً: تحكيم شرع الله تعالى:

قال جل ذكره: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَنِ الْعَمَلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحج: 41].

هذه هي بعض ملامح النصر والتمكين في هذه الآية، والتمكين في الأرض لا يكون إلا بعد تحكيم شرع الله، عقيدة، وعبادة، وأخلاقاً، وسلوكاً، وهاهنا تبرز المؤشرات الأساسية للتمكين، وهي:

1 إقامة الصلاة.

2 إيتاء الزكاة.

3 الأمر بالمعروف.

4 النهي عن المنكر.

وهذه أسس الأساس في بناء المجتمعات وتشديد صروحها، وتحقيق النصر والتمكين، إنها خصال جمعت بين عواطف القلب والروح، والتي تتمثل في الصلاة، والتكافل الاجتماعي والاقتصادي، والذي يتمثل في الزكاة، ونشر الخير وتبليغ الرسالة، وصد الشر واستنصاله، والذي يتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذا المعنى أشار إليه ربنا تبارك وتعالى في آيات أخر، منها قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسَّخِرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسَّخَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التور: 55].

فإذا ما قام المسلمون بتحكيم شرع الله، ونبذ شريعة الطاغوت، والإذعان

لأوامر السماء، وهجر نزوات الهوى والنفس الأمارة بالسوء، ونصروا شرع الله، وأسهموا في تحقيقه يومذاك يأتي وعد الله بنصره، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ نَصْرِ اللَّهِ نَصْرَهُ، وَمَنْ دَافِعٌ عَنْ شَرِّ اللَّهِ حَفْظَهُ، وَالْجِزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَلَنْ تَجِدَ لِسِنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَا تَحْوِيرًا.

□ سادساً: التوكل على الله تعالى:

قال ﷺ: ﴿إِنْ يَضُرُّكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: 160].

وهذا أصل عظيم وأساسي من أصول النصر والظفر، فمن لم يتشعر معنى التوكل على الله والثقة به سبحانه، لا يمكن أن يكون مقداماً عند اللقاء، ولا يمكن أن تثبت وترسخ قدمه في ميدان الوغى.

والتوكل على الله لا يتناقض مع أخذ الحذر، وإعداد العدة، بل من الواجب إعداد العدة والأخذ بالأسباب، لكن دون الاعتماد عليها، ودون أن يركن القلب لحظة ما، أو يستشعر أن النصر قادم بسبب قوة أو أسباب، إن الأسباب لا تضر ولا تنفع، ولا تقدم ولا تأخر، إنما الذي يفعل ويقدر ويرفع ويخفض وينصر ويهزم، هو الله تبارك وتعالى.

ومن استقرأ معارك المسلمين مع غيرهم، لاحظ أن أولياء الله لم ينتصروا بسبب صولجانهم وطيلمانهم، ولا بسطة في الجسم والمال، بل كان منطلق نصرهم أهات تصعد إلى السماء في جوف الليل، ودموع حارة غزيرة تتساقط في محراب العبودية والتوكل عليه سبحانه.

□ سابعاً: التنسيق والمشاورة:

قال ﷺ: ﴿وَسَاورُهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ عَلَى تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: 159].

وهذا ما اهتم به النبي ﷺ في حضره وسفره، وهذا ما برز في غزواته

ولقاءاته، فكان النبي ﷺ يستشير أصحابه عند لقاء العدو، كما حدث في غزوة بدر والخندق، وغيرهما من الغزوات، ولطالما قال: «أشيروا علي أيها الناس، أشيروا علي أيها الناس»، ولا أريد أن أستطرد في تتبع أسباب النصر وركائزه، فالقرآن الكريم فياض بها، ذاخر بذكر معالمها وملامحها، ونبينا ﷺ حدثنا عنها.

لكن بالله عليكم يا مسلمون:

لو تأملنا في ما سلف من شروط النصر وركائز التمكين، ونظرنا إلى واقعنا اليوم وسألنا أنفسنا، هل تحققت فينا هذه الشروط لتنتصر، أو تحقق بعضها؟

إن الواقع المأساوي المرير الذي تعيشه أمتنا، ما هو إلا نتيجة أكيدة لبعثنا عن منهج الله تعالى في الحياة، وما نزل بنا من نكبات وويلات، ونكسات وهزائم ليس بغريب على الناظر العارف بسنن الله في الكون والحياة، أما الغافل الشارد عن تعاليم السماء، فإنه يتساءل: لماذا هذه الأوضاع المزريّة؟ وكيف نهزم ونحن أصحاب الحق؟ وفيما نزل القرآن وكله حق وصدق؟ أياغلبنا المنحرفون الذين بدلوا دينهم وحرفوا كتبهم؟ أياضطهدنا الذين يفترون على الله الكذب؟

ويأتي الجواب القرآني الواضح الصارخ: «أَوَلَمْآ أَصْبَحْكُمْ مُّصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّنِي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ [آل عمران:

[165]

نعم بما كسبت أيدينا، وما جنيناه من تكبب ملك الحق، والحياد عن شرع الله ربنا ﷻ.

يا مسلمون:

كيف تنتصر أمة هجرت كتاب ربها، وهمشت تعاليمه عن مسرح أحداث البشر، واستعاضته بقوانين البشر ونزواتهم؟ كيف تنتصر أمة سرت البغضاء في نفوس أبنائها، وسيطرت الضغائن على قلوبهم، فعاشوا حياة نكدة من التنافس والتطاحن؟

كيف تنتصر أمة ظهرت فيها الفحشاء، وكثرت في أرجائها دور الخنا، وهي تعلم ولا تمنع؟

كيف تنتصر أمة أضحت بمجملها مرابية، التعامل الربوي جهاراً نهاراً في أسواقها المالية، وهي تعلم، بل تشجع ذلك وتدعم؟

يقول النبي ﷺ: «يا معشر المهاجرين، خمس إن ابتليتم بهن، أعوذ بالله أن تدركون، لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعملوا بها، إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلب عليهم عدوهم من غيرهم وأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله إلا ألقى الله بأسهم بينهم»⁽¹⁾.

أورد المؤرخون أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مرّ يوم القادسية على معسكرات جيشه ليلاً، فمرّ بقوم يصلون فقال: من هاهنا يأتي النصر، ومرّ بقوم تيام فقال: من هنا تأتي الهزيمة.

أيها الصائمون:

اغتنموا هذه الأيام المباركة، واجعلوها سبباً لعودتكم إلى الله تبارك تعالی، فمن كان منغمساً في المعاصي أو شارداً عن ربه ﷻ فليتب، وليقلع عما هو فيه من الذنوب والآثام، فمن يدري لعل عاصياً أو معصية ما، منعت تنزل النصر والرحمات من السماء.

ولا نياس يا اخوتي:

فما أصابنا يمكن أن نتداركه ونتلافى ما وقعنا فيه، وذلك عندما نغير ما في أنفسنا وسلوكنا ومنهجنا في الحياة، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: 11].

(1) رواه الحاكم في المستدرک، 4/583، رقم: (8623)، وابن ماجه، 2/1332، رقم: (4019).

وإذا ثبتنا إلى رشدنا، ورجعنا إلى كنف ديننا فحاشا لله أن يتخلى عنا، ولكن قد يصيبنا البلاء والمحن، إلا أن النصر لا شك آت، والظفر قريب، فبعد العسر يسر، ومن الشوك ينبت الترجس، وما بعد ظلام الليل البهيم إلا إشراق الفجر المنير: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْفَٰئِرِينَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: 110].

فلنجعل من هذه الأيام أيها الأحباب، محطة لمراجعة الحسابات، ورض الصفوف، وإعادة النظر في أوضاعنا وأحوالنا، لتكون نظرتنا إلى ما حققه الأوائل من انتصارات في هذا الشهر الكريم، نظرة المعبر المستفيد، وأن لا يمر علينا هذا الشهر مروراً سريعاً دون تحقيق تقدم أو تغيير.

اللهم عجل فرجك ونصرك لهذه الأمة.

اللهم اجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً.

ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم

الكافرين.

والحمد لله رب العالمين.

